تمثلات الطبيعة في شعر عارف الساعدي

أ.د. رائدة مهدي جابر العامري

الباحث. كرار خضير عبد كيطان الخناني

جامعة بابل/ كلية التربية الأساسية/ قسم اللغة العربية

journalofstudies2019@gmail.com

الملخص:

تكون عودة الشاعر الى المرجعية البيئية ابسط ما يكون من الروافد الشعرية الاخرى, كون المادة الخام متوفرة في كل مكان وزمان ويستطيع المبدع الحصول عليها دون المغامرة في بطون الكتب وتعرجات التاريخ في سبيل اكتساب ثقافة معينة يرفد بها خزينه المعرفي والثقافي وتؤهله الى خلق فكرة معينة تخدم قصيدته, ويبقى الشعراء الفئة البشرية الامثل التي أبدعت كل الابداع في تضمين مظاهر الطبيعة بكافة أنواعها, بوصف ممزوج بخيال واسع ورقة العاطفة والمشاعر الجميلة متمثلة بالألفاظ البيئية الطبيعية, أحد الوسائل التي يعبر عن طريقها المبدع عما يدور في خياله, وترغب به نفسه, فيخرجه للوجود مصحوباً بنفس موسيقي ولمسة فنية وصور احترافية, ولذلك حظيت الطبيعة باهتمام الشاعر عارف الساعدي بكافة تفرعاتها البيئية, فعمل على انتقاء ما يتلائم والواقع الذي يعيشه, حيث عمد إلى صبغها بدلالات عديدة, وهو في استدعائه لمظاهر الطبيعة يسعى إلى عدة امور ويتطلع الى جملة من الاتجاهات أهمها الخروج من واقعه إلى واقع أجمل رسمه في نصوصه الشعرية و مظاهر الجمال والبهاء هذه هروباً من واقعية البيئة, أو هي اظهاراً لبراعته وتمكنه ومقدرته على تحويل الماديات الطبيعية الى صور شعرية معبرة, أو بث الجمال في نفس القارئ أو المتلقي , ولذلك وجدنا الشاعر عارف الساعدي قد وظف الطبيعة أجمل توظيف ضمن نصوص شعرية يتخللها نفس موسيقي جميل وصورة فنية رائعة, وقد أظهرت الدراسة ثقافة الشاعر الواسعة وتمكنه من هضم روافد الطبيعة وتحويلها إلى نصوص أدبية جميلة .

الكلمات المفتاحية: (تمثلات الطبيعة، شعر عارف الساعدي).

Representations of nature in the poetry of Aref Al-Saadi

Dr. Leading Mahdi Jaber Al-Amiri

Karrar Khudair Abdul Kaitan Al-Khanani

University of Babylon/College of Basic Education/Department of Arabic Language

Abstracts:

The poet's return to the environmental reference is the simplest of the other poetic tributaries, since the raw material is available everywhere and at

all times and the creator can obtain it without venturing into the stomachs of books and the twists and turns of history in order to acquire a specific culture with which he supplies his knowledge and cultural treasury and qualifies him to create a specific idea that serves his poem And the poets remain the ideal human group that created all the creativity in including the manifestations of nature of all kinds, with a description mixed with a broad imagination and tenderness of emotion Beautiful feelings are represented by natural environmental terms, one of the means through which the creator expresses what is going on in his imagination, and desires it himself, so he brings it into existence accompanied by the same music, an artistic touch, and professional images. which he lives, as he deliberately dyed it with many connotations, and he is in summoning the manifestations of nature seeking several things and looking forward to a number of directions, the most important of which is the exit from his reality to the reality of the most beautiful drawing in his poetic texts and these manifestations of beauty and splendor to escape from
The realism of the environment, or it is a manifestation of his ingenuity, mastery, and ability to transform natural materials into expressive poetic images, or to spread beauty in the soul of the reader or recipient, and therefore we found the poet Aref Al-Saadi has employed nature in the most beautiful employment within poetic texts interspersed with a beautiful musical soul and a wonderful artistic image, and it has shown Studying the poet's vast culture and enabling him to digest the tributaries of nature and transform them into beautiful literary texts.

Keywords: (representations of nature, the poetry of Aref Al-Saadi).

أولاً :- تمثلات الطبيعة الصائتة

التصور العام لشعر الطبيعة الذي ينضوي تحته عدة تفرعات, شكلت هذا المفهوم البيئي ومنها الظواهر الطبيعية الصائتة, إي ما اشتملت عليه الطبيعة من المخلوقات الحية المتحركة سوى الانسان فكل جسم له صوت من الحيوانات والطيور يركن في زاوية الظواهر الطبيعية الصائتة إذ(عُني الشعر العربي بوصف الطبيعة الحية عناية فائقة , لإرتباطه بها في مجالات حياته كافة من غذاء ونقل

وغيرها)[١] حيث وجد الشاعر نفسه في بيئة تحيط بها عناصر الطبيعة وتملؤها المناظر الخلابة ولهذا فرضت الطبيعة نفسها موضوعاً شعرياً تتلاقفها أقلام الشعراء الذين لن يدخروا جهداً في توظيفها والتغني بعناصرها الحية والصامتة , كونها مصدراً ورافداً سخياً من الروافد المغذية للتجربة الشعرية على مستوى التشكيل والموضوع , فضلاً عن عدها أحد مقومات الحياة الانسانية[٢] وركيزة قائمة بذاتها .

شكلت الطبيعة عند عارف الساعدي موضوعاً شعرياً له إيحاءات ومعطيات تنبعث من الواقع المحسوس أو المرئي الذي هضمه وتمكن من تحويله إلى تشكيلات شعرية باللفظ والمعنى , ومن هذه التشكلات البيئية الحية الصائتة (الحيوان) إذ وظفه الشاعر في عالم القصيدة جاعلاً منه صورة فنية من صور الطبيعة الحية (فما من شاعر عربي إلا وللحيوان أثر مهم في شعره)[٣] وقد أخذ الخلف عن السلف مع إختلاف كيفية التوظيف كون شعراء العصر الحديث وجدوا من الثقافة ومظاهر الحياة ما هو مختلف عن البيئة الجاهلية , فضلاً عن الإستغناء عن الحيوان كوسيلة مهمة للنقل والحرب وتحجيم أماكن تربيته في أماكن منتظمة وحجر المفترس منه في محميات خاصة فهذا كله جعل من الإنسان عامة والشاعر خاصة بعيداً عنه مما قل تأثيره على ذائقته الشعرية ومخيلته الأدبية .

صورة الجمل

من ملامح توظيف عناصر الطبيعة الحية أو الصائتة في نصوص عارف الساعدي ما لمسناه في نصوصه المفعمة بحب الوطن والتغني به وذكر جراحاته فالشاعر يبحث عن وطن ضائع كما في أبيات القصيدة, لا يملك أي علامة تنذر بوجوده في مكان معين ومن يبحث عن أمر مجهول وسط الصحاري والوديان والطرق الوعرة لا يمتطي وسيلة سوى الجمال , صاحبة المهمات الصعبة للإنسان العربي القديم إذن إستطاع الشاعر أن يجانس ويلائم بين فكرة النص وتوظيف المرجعية المناسبة المتمثلة بالطبيعة الحية , إذ يقول :

مضى والصباحات في راحتيه
وباع المساء لكي يرحلا
وراح يلمُ أغاني الرحيل
يشقُ بها في المدى جدولا
قوافلُه والجمال العجاف
سكبن الرحيل بوجه الكلا
فأوحشه طول هذا الطريق
ويمشي ويبقى المدى أطولا[٤]

يلحظ القارئ للنص المار من قصيدة (بانتظار الوطن) ترابط العنوان مع سياق النص من فكرة ومرجعية وأدوات , فتوافر الدوال نحو (إنتظار – مضى – يرحلا– الرحيل – يشق – المدى – قوافله – الكلا –

أوحشه – الطريق – يمشي) كلها تنطبق مع صفات الجمال ومهامها وبهذا يكون للمرجعية الطبيعية دور هام في تماسك عناصر النص مع بعضها البعض فضلاً عن التنبيه إلى أمر آخر ربما أراده الشاعر في أبياته وهو أن صبر الشاعر وتحمله لسنين طويله في إنتظار الامل الذي ينتظره ببزوغ فجر وطن جديد يلبي طموحاته ويجد فيه الأمن والعيش الكريم , لا يقل عن صبر الجمل وتحمله الجوع والعطش و مشاق الطرق ووعورة الأماكن وفي النهاية يدرك مبتغاه , وعندما نتأمل في هذه الابيات نصل إلى معنى مفاده أن قافلة الوطن سارت منكسرة بجمالها العجاف , ليبحث عن غدا أجمل يتمتع به أبناءه , غير أن الطريق قد طال والمسافات ابتعدت والوصول أصبح صعباً في ظل طريق موحش يمتد مع أفق السماء .

صورة الخيل

إحتل هذا الحيوان مكاناً مرموقاً في نفوس الناس , ولا سيما الشعراء وخصوصاً في أشعارهم , إذ بالغوا في توظيفه واهتموا به , وذلك الاهتمام ماهوا إلا إمتداد للثقافة العربية التي أكرمت هذا الكائن الذي جمع كل الصفات الحميدة , ففي ذكره في مجالس العرب يتبادر إلى الذهن معاني الحرب والغزو والقتال, وعند الشعراء تجد فيه صور الجمال والحب فضلاً عن السرعة والقوة والنصر والغنيمة , ولذلك نجد الشاعر عارف الساعدي قد وظف هذا المخلوق في عدة مواضع وعلى سبيل المثال لا الحصر نذكر منها موضع واحد, فعند التمعن في قصيدة (تفاصيل قابلة للضياع) نجد الهمة والصلابة حاضرة في البيت الشعري , إذ يقول :

ومن لصحراء هذا الموت ؟ قلتُ أنا.. ولم أتمّ كلامي بادرت خيلي[٥]

يتقمص الشاعر عبر قناعه موقف الفارس الشجاع الصلب المتأهب, المتقدم لصفوف من معه, وبان ذلك من سرعة استجابته لسؤال مجازي تقريري فهم منه طلب الغوث والمساعدة, فقال الفارس أنا لها دون الإكتراث لأي عواقب, إذ يبدوا أن هناك كلام أراد ذلك الفارس قوله, غير أن الخيل منعته من ذلك منطلقة نحو المقصد ولهذا إكتفى الشاعر بوضع عدة نقاط نهاية صدر البيت , فضلاً عن أن هناك مدح ضمني وإشادة جميلة للخيل فذكائها وتمرسها ميزتها بسرعة فهم كلام فارسها ودقة تصرفاته وتفاصيل حواسه وبكلامه هذا أراد توصيل رسالة للمتلقي عن شجاعته وأنه ناصرٌ لمن طلب ذلك بأي شكل من الأشكال بل أن صفة الشجاعة غرسها في خيله , فضلاً عن حسن تربيته وتدريبه للخيول العربية وأنه يمتلك الخبرة في ذلك إيضاً ولهذا عبر عنها بصورة غير مباشرة .

صورة الغزال

طبيعة الغزال وهيئته فضلاً عن صفاته المادية , جعلته من أكثر المخلوقات التي عكست صورة إيجابية عن الطبيعة , لا سيما الحية منها , وذلك فرض على الشعراء توظيفه والتغني به , فهذا استعار عينيه وقوام أطرافه لوصف محبوبته , وذلك أعجب بسرعته ورشاقته , وغيرها من صفات تلائم قصد الشاعر وفكرته وغرضه , وعلى هذا الأساس نجد عارف الساعدي يوظف تلك الطبيعة الحية ما جاء في قصيدة (ما زال) إذ يقول :

ومضى إلى عينيه صاد غزالة المعنى وفرَت من يديه وما درى متا
زال يركض خلفها وطناً بلا معنى وحلماً لا يُصاد ولا يُرى[٦]

يسيطر الخيال بصورة تامة على سياق البيتين أعلاه , إذ نرى الشاعر متأرجح القول والرأي حول (الغزالة) وإصطيادها, حيث يقول في صدر البيت (ومضى إلى عينية صاد غزالة المعنى) إي صادها بصرياً لا حقيقتاً ودليل ذلك نقض كلامه هذا في عجز البيت كقوله (وفرت من يديه وما درى) , فضلا عن قوله (غزالة المعنى) أي صفة الغزالة لا حقيقتها , أضف إلى ذلك صعوبة اصطياد هذا الحيوان لرشاقته وسرعته الفائقة , ونرى أيضاً أن الشاعر ربما كان يقصد بالغزالة ليصف امراة مرت من أمامه مسرعة, فألمحها دون التمعن بشكلها , فظفر بها في عينية للحظات لكن سرعان ما أفلتت منه .

أما في البيت الثاني فيمكن أن نرى الصورة الأوضح والقصد الأرجح النابع من وجدان الشاعر المتشبع بحب وطنه الذي لا يفارق لسانه أبداً , إذ يشبه حلمه بالغزال من حيث أن حلمه ليس كبقية الأحلام وهذا الحيوان ليس كبقية الحيوانات , كون حلمه صعب التحقيق لأنه يرغب ويحلم بوطن أجمل وواقع أفضل من الذي يعيشه وهو كان وما يزال يركض وراء هذا الحلم , والغزالة أيضاً صعبة الظفر والإمساك لرشاقة جسمها وسرعتها الفائقة , ولهذا عمل الشاعر على توظيف الطبيعة الحية المتمثلة بهذا الحيوان , كونه الأقرب من غيره إلى خدمة نصه والأنسب لرفد فكرته بتشبيه طبيعي ملائم .

صورة البقر والغنم

ويستمر الشاعر في استدعاءه لعناصر البيئة الحية مستثمراً ثقافته الطبيعية وواقعه المحيط في رفد ديوانه وتلوين نصوصه بشيء من كرم الله ونعمه في الأرض وإن لم يكن الشاعر على سبيل المثال لا الحصر ريفي الثقافة والعيش فأن عناصر الطبيعة الحية ومنها البقر ليس بالغريب أو القليل الذكر والوجود في واقعنا , لذلك ما نريد قوله أن الثقافة البيئية تتسرب إلى خيال الشاعر بأي شكل من الأشكال وغالباً ما تتحد مع مرجعات أخر لتشكيل النص الشعري , ومن ذلك ما نراه في هذا النص ذات الصبغة الاجتماعية , إذ يقول :

شقياً خرجت من الأرض
أكسر ما كان يصنعه والدي
وألوذ كثيراً بأطراف أمي
عباءتُها حرسٌ من يديه
وشفاعتها رسلٌ طيبون إليه
هكذا كنتُ أخرج في الفجر
أوقظ البقرات بلكز العصا(٧)

ينقل الشاعر عبر قناعه تفاصيل حياة الأطفال وشغفهم في حب الحياة الذين يترجمونه على هيئة أفعال مسلية في نظرهم وممزوجة بالشقاوة والمرح التي لا يسلم منها حتى الحيوان , كقوله (وأوقظ البقرات بلكز العصا) حيث وظف (البقرة) كصورة حية للطبيعة المتحركة التي ساهمت في بناء النص قبل أن تكون عنصر بيئي فعال في بناء الطبيعة, كذلك ساهمت الطبيعة الحية بإضاءة جانب من حياة الريف وإزاحة الستار عن يوميات أطفالهم التي يقضونها بين النباتات والمزاح مع حيواناتهم وأفعالهم البريئة المبنية على الفطرة .

أما لفظة (الأغنام) فكان لها فرصة الحضور في شعر عارف الساعدي بوصفها مثالاً للمرجعية الطبيعية, إذ يقول :

ورسمتُ أغناماً تسير , وراعياً

يلهو , وفلاحين نصفَ عراةِ(٨)

حيث استقام قول الشاعر باستقطاب لفظة أغنام وبأسلوب احترافي وليس اعتباطيٌ عابراً كونه أسند ذلك بلفظة الراعي والفلاحين ليخلق من كل ما سبق أجواء بيئية واقعية , هي نتاج ما أفرزته قريحته الشعرية ومخيلته الفكرية .

صورة الكلاب والقطط

من علامات التنوع الثقافي والسعة الإطلاعية لدى أي شاعر هو التقاطاته من هنا وهناك بغض النظر عن نوع الرافد وكينونة الثقافة ,كونه ليس في غنى عن أي إتجاه ممكن صقله وبلورته وتخريجه من بوابة الشعر وبالتالي ركنه في الخانة التي ينتمي ضمن مستودع الخزين الثقافي ولهذا سعى عارف الساعدي إلى تلوين دواوينه وخصوصاً جانب الطبيعة الحية مدار بحثنا , إذ كان (للكلب والقط) نقطة مضيئة في سماء شعره , فيقول :

الصغار الشقيون في الحي مثلي
نغير مجرى الجداول
نكسر زيتونة في الطريق
نهش الكلاب على امرأةٍ تملأ الماء في قربةٍ
وحين كبرتُ قليلاً
بقيتُ على عادتي
في اختصار البساتين بالقطع
واللهاث وراء اصطياد القططْ(٩)

القارئ للنص المار يتبادر إلى ذهنه نفوذ البعد الاجتماعي أو الشعبي وسلطته على النص بصورة جعلت الطبيعة الحية المتمثلة في القطط والكلاب أحد الصيغ المكملة والمتممة لخدمة فكرة عامة تحكي عن شقاوة الصغار وتصرفاتهم الصبيانية في مناطقهم وأحيائهم, أي استشهد بالجزء أو الخاص(نهش الكلاب واصطياد القطط) وقصد الكل أو العام (شقاوة الاطفال وعبثية تصرفاتهم) وبذلك تكون الطبيعة وخاصة المتحركة منها (الكلاب والقطط) قد دعمت بناء النص وإرساء قواعده فتلقاها القارئ متأملاً ومفسراً ومحللاً صورة النعام

استُدْعيتْ صورة النعام مرة واحدة في عالم الشعر لدى الساعدي عندما أراد تشبيهاً طبيعيا مناسباً لما ذهبت إليه فكرته الدينية, إذ يقول :

دافئاً كان وادي السلامْ
واسعاً كان قبرُ الفتى
أول الأمر
والمخدةُ رملٌ قديمٌ
ولكنَه ناعمٌ رمل وادي السلامْ
وكأنَّ الفتى نائمٌ فوق ريش النعامْ(١٠)

السياق العام وما يرمي إليه النص يضع القارئ في تصور وتأمل لخاصية وادي السلام التي جعلت الشاعر يستعير لها صفات الدفئ ووسع قبور ساكنيها ونعومة رمالها فضلاً عن الغور في عالم الطبيعة وإستعارة ريش النعام المشهور بجماله وحسنه ونعومته ليشبه به رمال قبر المدفون في ودي السلام , وما توجه الشاعر هذا إلا إعتماده على أصل ديني مرجعي قد استند عليه , وعليه فقد كان الشاعر موفقاً في اختياره لهذا العنصر البيئي(النعام) دون غيره من مكونات البيئة الطبيعية الحية .

صورة الطير

تسابق الشعراء قديماً وحديثاً على تلوين قصائدهم بصور الطيور وأشكالها وصفاتها لان الانسان بطبعه على احتكاك بالمخلوقات من حوله ومنها الطير الذي إحتل منزلة واسعة عند العرب لإرتباطه بتجربة الصيد مما زاد التعلق به وجرى على ألسنة الشعراء فرسموا حوله الخرافات والاساطير , مما أثرى ذلك في الرصيد الثقافي في أدبنا العربي(١١) كذلك اشتهر عند العرب الكثير من الأسماء المستعارة من أسماء الطيور منهم (القطامي " الصقر" واليعقوب "ذكرُ الحَجل" والهيثمُ "فرخ العُقابِ" وعِكرِمة "الحمامة")(١٢) وغير ذلك, وما لهذا الجانب من حضور جيد في تجربة الشاعر, ارتأينا أن نضعه في قسم قسم خاص نسلط الضوء فيه على كيفية تعامل الشاعر مع توظيف الطائر في نصوصه كجزء حي من طبيعة هذا الوجود , فضلاً عن أثره وتأثيره في سياق النص وتشكيله, ويتبين للقارئ أن الشاعر في العديد من الأحيان أشار للطير بصورة مطلقة دون الولوج إلى أصنافه ومسمياته الكثيرة, ومن جملة توظيفاته لهذا الصيغة ما نجده في قصيدة (بقايا صديق), إذ يقول :

حزنتْ طيورُ العاشقين
وفتشتْ
في السرب عن طيرٍ
مضى بعذابه
سيظلُ ينزفه دماً
ويظلُ هذا الطير
في شوقٍ إلى أسرابه
طالت مسافاتنا
وطال عذابها
فوقفت والذكرى
على أعتابه(١٣)

صِيغ النص مع أشجان الحزن التي تكلل صدره, مصطفة مع أشواق النفس لريح العودة واللقاء من جديد, هذا هو الشعور الذي ينتاب الشاعر وهو يخط بقلمه كلمات النص ليزيح من صدره زمن قاتم من الذكريات , وكيف لا وقد فقد صديق له (بقايا صديق), فأصبح كالطير الذي تاه عن سربه وفقد أخبار اصدقاءه الطيور , فقتله الشوق وألم به العذاب مع بعد المسافات عنهم وشغف الحنين إليهم , فشبه الشاعر نفسه بهذا الطير المعذب جراء بعد صديقه (طالت مسافاتنا– وطال عذابها) فوقف متاملاً ومستذكراً له (فوقفت والذكرى – على أعتابه) , إذن كان لهذا الطير الأليف الذي جسد صفات الطبيعة

الحية في القصيدة , الدور الفاعل في توجيه سياق النص للمعنى الذي أراده الشاعر, إذ بث أجواء الهدوء والاشتياق والحب والشغف وهو ما يتناسب وصفات الطبيعة ثانياً :- تمثلات الطبيعة الصامتة

استقى الشاعر من مرجعيات ثقافية شتى, كانت الحجر الأساس لبناء نصوصه التي احتلت الطبيعة قسماً منها, ومثلما وجدنا رهافة حسه ودقة توظيفه للطبيعة الصائتة ,فهو لم يدخر جهداً في استقطابه للطبيعة الصامتة, حيث نقل عن طريقها صورة حية عن ما يحيط به من ظواهر البيئة ورياضها كغطائها النباتي وأشجارها والمياه ومصادرها والسماء ومحتوياتها وتضاريسها وغيرها من الظواهر, إذ استحوذت الطبيعة على كيانه كغيره من شعراء عصره الذين وجدوا الجمال يتنفس في أجوائها والنفس تطيب في كنفها , فرأينا الطبيعة حاضرة في غزله وتغنيه بوطنه ,كذلك تطل على عتابه وحزنه ورثاءه , إذ استهوته روعة رياضها, وأثارت فكره وخياله ,فوصفها وأتقن تخريجها, فضلاً عن استمالة السماء لنفسه فلم يترك شيئاً من ظواهرها إلا وشغف في وصفها , ولم يكبح ذلك جماح مشاعره الفياضة ,حيث تعدى ذلك للمياه ومصادرها وجزئياتها ومتعلقاتها وعلى هذا الأساس قسمنا الطبيعة الصامتة إلى ثلاث فقرات هي :

- الغطاء النباتي
- المسطحات المائية
- الظواهر الكونية

الغطاء النباتي

يشمل ما كان أن يمثل نباتاً, كالأشجار والحشائش وغيرها, حيث جاء توظيفه بصورة جيدة متفوقاً على باقي تشكلات البيئة الصامتة, فيصور لنا الشاعر الطبيعة الخضراء ومنها النخلة, إذ يقول :

عندما مرَ عمره في الأغاني نبت الفجر في ضفاف اللسانِ
غازلاً قمحنا البريء نشيداً وشباكاً تصيد طير الأماني
ومشى كان خلفه النهرُ يمشي والخطى تزرع الضفافَ الغواني كان
يمشي فتنبت الأرضُ ماءً وحقولاً كأنهن أوانِ
نخلةُ القلب – مذ رأته – أفاقت بعد أنْ ملَ نومَها عاشقانِ
حفراً خصرها مواعيدَ ثملى وهما تحت تمرها يقفانِ
قبلٌ حلوةٌ وتمرُ عناقٍ سال بين الشفاهِ والأحضانِ زمنٌ
مرَ , نخلةُ القلب تنسى أنَ في التمر عاشقاً متفاني ومضى
العمر كلُ شيء تلاشى غير أنَ المكان نفسُ المكانِ
فرمى الأفق مقلتين وقلباً وبقايا حكايةٍ ودخانِ
يورق الصوت من صداه ويمتدُ حريرُ الكلام في الأغصانِ

ولهذا تركت صمتي وصوتي خلف بابي, فالصوت صوتٌ ثانٍ وأبحثُ
المساء موال قمحٍ للفتى القادمِ الذي لا يـرانـي(١٤)

لو تمعنا في النص نجده ايقونة بيئية جامعة لظواهر متعددة ,إذ كان لعنوانه(عمره الماء)الانطلاقة الاولى لشعرية الطبيعة فيه, لذلك نجد ألفاظ الأشجار والنباتات متسيدة على غيرها من عناصر البيئة نحو(القمح – الحقول – النخلة – التمر – الأغصان – تزرع) وذلك التوظيف الذي انتقاه الشاعر من رحم الطبيعة وزخرف به نصه حتى بث الحياة في أرجاءه , لم يأتي وحده فحسب ,بل قرنه الشاعر بما يتلائم وما يبعثه في النفوس من جمال وأمل ,إذ استثمر ألفاظ الحب والود لتفي بالغرض نفسه, لأن الطبيعة والحب أمران مرتبطان ببعضهما البعض ,فضلاً عن ما تبعثه في النفوس من شعور مختلف واحساس مفعم بالحب والحياة , كذلك أثرها على المتلقي لانسجامها وخيال القارئ واحساسه وهو يعيش أجواء الراحة والمتعة مفسراً ومتأملاً في النص .

وتأتي الطبيعة في موضع آخر, إذ يقول :

عذبٌ هو القلب لو سورته شجرَك مر الزمان وعاف الناس وانتظرَك(١٥)

يحمل البيت أكثر من تأويل: الاول منه ذا نظرة صوفية ويدور حول التغزل في الذات الالهية, فالقلب يصبح عذباً ومطيعاً ومواليا لو أحطته بفيض كرمك(سورته شجرك) وقذفت فيه حبك و إيمانك واتباعك ,وحتى وان مر الزمان ودارت الايام تبقى المعبود الاوحد والمطاع الامثل الذي شغل العبد عن بقية العباد والبلاد وبقي ينتظر لقائك وجنتك التي وعدت بها المؤمنين, أما الثاني ففيه إشارة إلى المحبوبة التي ربما لا تعترف بهذا الحب , فكأنه يخاطبها ويعاتبها في نفس الوقت ,لان قلبه يتألم ولا يصبح نقياً عذباً إلا بهدم جسور المجافاة وتشييد جسور الحب والوئام والمودة وإحاطة القلب بسور من أشجار حبك تمنع تسللك خارجه وتصد الاخرين من الولوج الى مكانك , فدارت الايام ومرت الليالي وانت باقي دون غيرك تنتظرك الروح والنفس بشجن وشغف, وبالتالي كانت الاشجار هي الاساس في توجيه معنى النص لأكثر من وجهة نظر, كون الطبيعة تتميز بليونة التوظيف والتلاعب في المعنى والمركز الذي يريده صاحب النص, وبالتالي حرية التحليل.

واستدعاء الاشجار في البيت السابق تطلب وجود صيغ مكملة ومتممة لهذا الحضور الطبيعي, تمثلت في الثمار, إذ يقول الشاعر :

ضيعتُ غيمة حقلي واتجهت إلى ... أنا ابتعدت وهذا الغيم ما اقتربا وعدتُ
أبحث عن تفاح أسئلتي وعن بقايا لغصنٍ في دمي صُلبا وعن نشيدك,
عن فوضاك, يا وطناً في زحمة المدن الخرساء مغتربا(١٦)

عمد الشاعر الى توظيف (التفاح) في نص متشبع بالروافد الطبيعية, ضمن حلقة الضياع والتيه وأجمل ما في ذلك المفارقة في بيته الاول إذ ضيع غيمة حقله ودالته عليه وقد ابتعد عنه كثيراً ملاحقاً الغيوم التي كلما اقترب منها بقيت بعيدة عنه وهكذا يبتعد شيئا فشيئا عن حقله, فربما ذكر الغيم والحقل وأراد الوطن بسماءه وأرضه ,بدليل قوله في البيت الثالث الذي يتسائل فيه حتى عن الفوضى التي عمت وطنه كونه حب كل شيء في وطنه الذي اغترب في زحام المدن الخرساء الفاقدة للعيش الكريم, فهو كالغيمة التي يصعب الوصول إليها, وربما هناك إشارة أراد بها الشاعر التذكير بقصة آدم وحواء(عليهم السلام) وأكلهم للتفاحة التي بسببها خسروا وطناً سعيداً ولجئوا إلى وطن آخر ممتلأ بالمتاعب, ففي تفكير خيالي أراد البحث في دمه عن بقايا التفاحة التي تناولها أبيه آدم وسريت في دمه .

المسطحات المائية

المياه ومصادرها وما له علاقة بها من العناصر الطبيعية التي اكتسبت اهتمام الشعراء, ومنهم عارف الساعدي الذي نوع توظيفه لها مستدعياً الانهار والبحار والجداول والبحيرات وغيرها من المسطحات التي تحتوي على مياه, و نجد الشاعر أشار إلى المحوي (الماء) أكثر من ذكر الحاوي(الأنهار والبحيرات.. الخ) في إشارة منه إلى أهمية وجوده في الحياة والطبيعة, إذ يقول:

أحسستُ بأني عطشانٌ جداً
لكني لا أعرف إنَ الماء سيروي عطشي أو
– أصدقكم قولاً–
لا أعرف إنَ الماء هو الماء
وبقيتُ أداري عطشي بالنظراتْ
الماءُ قريبٌ جداً مني
الماءُ يرشرشه عبثاً ولدي
ويرشُ الماء على الحيطان
ويرمي الكوب إلى الشرفاتْ
وأنا أحلم بالماء على الكلماتْ(١٧)

الترابط الواضح بين النص وعنوان القصيدة(حدود الذاكرة الطينية) له الأثر الهام في بلورة المعنى الجوهري لهذا النص, فالشاعر في أجواء حلم عصف بخياله وقَوَلَه ما ليس بقاموس تصرفاته وأفعاله, كون الحلم يضع الانسان في عالم آخر يقرب له البعيد ويبعد القريب وينسى ويتذكر وغيرها من أمور تشتت ذاكرة الانسان وتبعثرها كحال من يفقد ذاكرته ويصبح أسير ذاكرته الفطرية أو الطينية– حسب وصف الشاعر– كون الذي اكتسبه ذهب وتبخر, فتذكر الماء والامور الفطرية غير المتعلمة والمكتسبة لا تهتم بذهاب التذكر من وجوده, بل هو ايعاز عضلي لا ارادي يفرض على كيان الشخص ولا بد من

تلبيته , أو لعل الشاعر قصد من قوله هذا أنه قد فارق الحياة ومرت عليه لحظات العطش الشديد ولكن من حوله لا يشعرون به وولده يعبث بالماء من حوله ولا يبالي عطش والده, ولذلك كله تكررت لفظة الماء أكثر من مرة ,لتركيز الشاعر على أهمية الماء بالنسبة للإنسان وحاجته له في الحياة والموت, رغم ذلك جعله الله مبتذل ومتوفر ويضعه الانسان في آخر حساباته ولجذب انتباه المتلقي وشد فكره وخياله بالتأمل والتفكر تشكيلاً وتركيباً ومعرفة عظمة الطبيعة ومكوناتها وما تقدمه للإنسان بلا مقابل , فكانت خير متمم للحياة .

فضلا عن كون الماء أساس الخليقة , وله الدور في تركيبة الانسان الاولى, كونه خلق من ماء وطين وقد استشف الشاعر ذلك من القران الكريم وظهر أثره جلياً في شعره, إذ يقول :

سبحانك اللهمَ
كيف خلقتَ هذي الناس من ماءٍ وطينْ
.....
وحفرتَ للماء الذي يبقى
بأجساد الخليقة معبراً رخواً[١٨]

ومن تمظهرات المسطحات المائية ,أيقونة النهر ,كصيغة طبيعية طرزت كيان النص الشعري, إذ يقول :

وثمَ نهرٌ في الحكاية فالتٌ
من يُمسك النهر الغبيَ ؟ ومن يقول له
تمهلْ واسترح؟
حلمُ الشباب على ضفافك نابتُ[١٩]

حيث ربط النهر بحياة الانسان ونعته بالغبي واظهار تقصيره ,رغم كونه لا ذنب له ولا سلطة ولا تدخل في شؤون الناس.

أما البحر فوظفه الشاعر في اطار حديثه عن قصة دينية بدأت من الماء وانتهت في الماء بمشيئة الله تعالى , إذ يقول :

الرضيعُ الذي كان يأكله البحر
ونام على زند فرعون
ها هو يحرق نوم القصور
ويرمي عصاه الشقية للبحر
ثم يغرق فرعونه وينام

على ضفة البحر نام الفتى مطمئناً
وصندوقه يمخر الان وجه البحار(٢٠)

نفهم من النص تأويلين, اولهما تحقق نصر الله ولو بعد حين من الزمن القاتم والظلم المستبد مع الحث على التمسك بالأمل حتى وأن كان مستحيلاً لان هناك رب لا يسمح بأن يُضام من عباده أحد , والامر الثاني هو تذكير المتلقي كيف تدور السنين ويتغير الحال, وبلحظة حاسمة يتغير الوضع وتقلب بك موازين الزمن , لذلك سر على الصواب دائماً ولا تبالي لومة لائم ,فانظر إلى فرعون مثالاً, كيف تحول من مالك كل شيء إلى فاقد كل شيء , إذن كان للطبيعة دوراً هاماً في قصة موسى وفرعون ,إذ ساهمت الطبيعة المتمثلة في البحر في ارساء قيم العدالة وقواعد الدين الجديد والقضاء على فرعون وظلمه .

الظواهر الكونية

عمد الشعراء قديماً وحديثاً إلى التفكر والتمعن بظواهر الكون ومجراته ومكنونات السماء وما ينتج عنها من ليلٍ بهي بنجومه وقمره, ونهار مضيء بشمسه ونوره , فمثل هذا أحد المرجعيات الثقافية التي أرست قواعد شعرهم وأضافت له لوناً من جمال البيئة الطبيعية ورونقها , وكان عارف الساعدي من السباقين إلى الولوج في عالم الطبيعة الصامتة ومنها الظواهر الكونية , إذ يقول :

رسمتُ غيماً ولم أرسمْ له مطرا لكنه
كسّر اللوحاتِ وانهمرا
وفزَّ الماء طيناً كان مختبئاً
في لوحتي ناطراً في صمته المطرا(٢١)

في صيغة قناعية فنية يتحدث الشاعر عن ظاهرة كونية ربانية في سياق خيالي استند فيه على الروافد البيئية لينطلق في رسم لوحته التي يروم اكمالها لتمثل وطناً كاملاً من سماءٍ وأرضٍ , فالشاعر رسم في لوحته غيماً دون قطرات مطر ما دعى الغيم إلى القاء ماءه وتكسير لوحته التي تعب في اعدادها وهنا إشارة إلى من يعمل بلا إتقان وتخطيط ,فلو كان رسم المطر لما حصل ذلك .

وفي نص آخر يستدعي لنا الشاعر ظواهر أخرى استقاها من واقعه وبيئته, فتبلورت في مخيلته وأصبحت صوراً شعرية على أرض القصيدة , إذ يقول :

العاشقون مضوا لا عشق لا فرحُ والعاشقون على أبوابك انسفحوا مضوا
يغنون يا بغداد ما انتظروا مالاً فما خسروا شيئاً ولا ربحوا مضوا يصلون يا
أله كيف مضوا لا عاتبوا قمراً, لا نجمةً جرحوا مرَوا على ليلك البني

فاكتشفوا معنىً على حجم هذا الليل ينفتحُ معنىً بأنَ سماءً فوقنا لبست
قميص نارٍ تخفى تحتها شبحُ[٢٢]

يحكي الشاعر قصة غزو العراق وما حل بليله الجميل وسماءه الساحرة, إذ تحولت سماء بغداد إلى مشهد من نظر إليه امتلأ قلبه حزناً وقهراً, فوظف الشاعر العديد من الظواهر الكونية التي لها تماس مباشر مع فكرة الشاعر خصوصاً وأن القصف الجوي حصل ليلاً, أي في وقت ومكان محددين, إذ استدعى(القمر– النجوم– الليل– السماء) فسماء تلك الليلة بدا وكأنه لبس قميص من نار لشدة القصف والجور الذي صد ضوء القمر وأخفى لمعان النجوم فصار قطعة ملتهبة لا تصلح للعيش.

ثالثاً :– تمثلات المكان الطبيعي

ينتج المكان الطبيعي على القصيدة نتيجة اتحاد عناصر الابداع الشعري من حس وخيال ومشاعر مع ما موجود في بيئة الشاعر من مادة خام وظواهر ممكن ان تشكل مرجعية ثقافية له .

لقد أسهمت الطبيعة بجمالها وأجوائها وأماكنها البراقة في رفد الشعراء بمادة شعرية مكثفة (فالطبيعة بكل موجوداتها الحسية, أشياء , وظواهر, مصدر مهم يمد الشاعر بمكونات صوره)[٢٣] , فعمد الشعراء الى توظيف الأمكنة الطبيعية باختلاف أنواعها وطبيعة تشكيلها (حيث سحرتهم مشاهدها , وبهرتهم مظاهرها, فحلقوا بخيالهم في أجوائها , وجنحوا في سمائها ورباها وخمائلها , وانطلقوا بين جداولها ورياضها مأخوذين بما أودعه الله فيها من جمال باهر , وسحر آسر)[٢٤] , فوظفوا أجمل صور المكان الطبيعي ومنها (الأنهار والأهوار والصحراء والكهوف والبساتين والغابات والحدائق) وغيرها , باعتبارها قيم ثقافية انتجتها الطبيعة ساعدت الشاعر إلى جانب مرجعيات أخرى على اخراج صور مكانية ذا نسق ثقافي متجانس .

إذ نجد للمكان الطبيعي حضور وافر في شعر عارف الساعدي , ومنها الانهار ولاسيما نهري دجلة والفرات اذ ان (المياه برمزيتها تدل على الخصب , والعطاء والنماء والخير والبركة والحياة والأمل المنتظر)[٢٥] , لما لها من أثر عميق في نفس الشاعر وهذا ما لمسناه في قصائده التي وظف فيها نهري (دجلة والفرات) بوصفهما مكاناً طبيعياً, على اختلاف مسمياتهما بين موضع وآخر, فيقول في قصيدة (بانتظار الوطن) .

فأمسك آخر شمسٍ يعود
بها حاملاً حُلُماً أرملا
وحين دنا أمسك الرافدين
بحزنٍ وردد حين اعتلا

بماذا يخوفني الأرذلون
ومم تخاف صلال الفلا[٢٦]

فالشاعر في هذه القصيدة قد رسم صورة الوطن الضائع, الذي يبحث عنه ويحلم به ولم يجده, مستشهدا بأبرز معالمه وركائز وجوده وهما الرافدين, والمتتبع لجوانب المكان يجد أن لكل نص أدبي تعالقات نصية هيأت لمرجعيات مبدعة ثقافية لها الأثر المادي والمعنوي, ظاهرة كونية كانت أو اجتماعية يجب ان تستقي من ينابيعها وتستخرج من مصادرها[٢٧] ,وفي موضع آخر يستدعي الشاعر الرافدين (دجلة والفرات) متخذا لفظا آخر مختلفا عن المقام السابق, إذ يقول :

فإن الذي بيني وبينك موطني
تفاصيل تاريخٍ مضى وتجددا
.....
فمن قلمي الذاوي أضأتُ انطفاءه
ومن شاطئيك الحالمين توردا[٢٨]

فلفظة (شاطئيك) التي حملت صفة المكان الطبيعي في النص المار , جاءت لتدل على (دجلة والفرات) في نص متشبع و متوهج بعبارات الحب والعشق للوطن اضافة الى انه قد جعل من الرافدين احد شيئين حافظا على تاريخ هذا البلد, إذ بالقلم قد دون تاريخه وخرج للوجود وقرأته الاجيال وبالرافدين قد تألق وتورد ذلك التاريخ حيث استقى من عذبهما صانعي الحضارات على مر الازمان, فـ(النص لا يحيل على شيء سوى ذاته ولا حقيقة له خارج الإطار العلامي الذي ينتظمه ويشكل مرجعيته)[٢٩] ويكون بذلك قد حقق مردود ما أكتسبه من واقعه ونهله من بيئته .

وقد تركت المرجعيات الثقافية أثرها في الشعر ,لما يكتنزه المبدع من معارف تعبر عن الواقع المكاني ,ويتجلى ذلك في النص الشعري , ففي قصيدة (مالم يقله الرسام) يرتدي الشاعر قناع الرسام موظفاً المكان الطبيعي, ليعطي معطيات معرفية وذهنية , إذ يقول :

لا لونَ في اللون كانت لوحتي وطني
وكنتُ أمتدُّ في أحلامه حذرا
نهران طفلان مرَّ اللونُ فوقهما
فرفرفا واستراحا .... بعدها كبرا[٣٠]

ففي النص اشارة الى (دجلة والفرات) بقوله (نهران) غير ان الشاعر قد اضفى عليهما صفة الانسان (أنسنة الطبيعة) حيث صورهما بهيئة طفلان يمرحان ويلعبان سوية , في صورة مكانية يغمرها الجمال

والرونق قد استشفها الشاعر من وحي المكان الطبيعي , يتخللها حب الوطن ,والتغني به ,والحرص عليه, وفي اشارة مكانية أخرى تمثلت بالرافد الثقافي الطبيعي , ربط الشاعر وجود الوطن والحضارات بوجود الرافدين, لان سواهما يذهب كل شيء, إذ يقول :

عمره الماء كلَما جفَ فجرٌ سوف يأتي وعمرُه الرافـدانِ يـا بقايا
حضارتي ونخيلـي أنـت بـاقٍ ومـاءُ غيرك فـانِ الفتى سوف يرتقي ويغَني
بعد أنْ مرَ عمرُه فـي الأغانـي[٣١]

لم يجد الشاعر العراق غير نهري دجلة والفرات لكي تمثل لوحة جميلة يشير عن طريقها إلى قضية الانتماء والوطنية, فجمال نهري دجلة والفرات هي جمال الوطن والتعلق به[٣٢], لذلك ما نلحظ في النص ان الشاعر في غنى ان يتطرق للرافدين بوصفهما مكانا جغرافيا فحسب , بل ربط وجودهما بالتاريخ اذ جعل من الرافدين رمز حضاري دائم وبقايا ارث ثقافي وهذا راجع الى سعة ثقافته وبراعته في دمج اكثر من دلالة في صورة مكانية واحدة, حيث يصف النهران بصفة البقاء والخلود على عكس بقية الأنهار الفانية .

يأتي النص ليجسد صورة ثقافية وعطاء فكري يستحوذ على ذائقة المتلقي ويشترك معه ليكون علاقة ثقافية قائمة على مفهوم التأويل (فالنص الادبي كإبداع ينتمي إلى حقل الفن, وكل عمل فني يستدعي التأويل, فالنص إذن في حاجة دائمة لطرف يتلقاه لتتحقق عملية القراءة)[٣٣] فالنص بمثابة نقطة انطلاق يدركه المتلقي عبر فضاءات المكان لما يحمله من رؤى جمالية فاعلة قوامها المكان الطبيعي, إذ نجد الشاعر في هذا الموضع يستدعي نهر(دجلة) فقط دون الإشارة إلى شريكه (الفرات) كما عودنا على ذلك, في صورة غلب عليها طابع الحزن والألم, إذ يقول :

فما نفعُ دجلة يا صاحبي
وهي تشرب أجسادنا
ثم تلقي بقمصاننا للضفاف[٣٤]

ما حملته الابيات من ألفاظ ومعاني ربما تكون حقيقة, (فنجد أن هذه المعاني التي تزخر بالجمال يرسمها الشاعر بصنوف الجمال والحُسن كله, حيث يعلو وجهه الحزن مكللاً بدمعٍ ساخن, فالشاعر لا يجد في وقوفه أمام هذا الجمال إلا وقوف من انتزعت الحياة الحلوة منه)[٣٥], حيث حدثت العديد من الوقائع والحوادث وكانت لدجلة فيها النصيب الوافر في ابتلاع أجساد الناس والغدر بهم وتغييبهم, إذ يضفي عليها الصفة الانسانية القاتلة, (وكلنا على دراية من ما جرى في نهر دجلة في الموصل اثناء غرق العبارة ومن عليها يوم الخميس ٢١/ ٣/ ٢٠١٩) إذ أصبحت ذكرى ألم وحزن لعشرات العوائل

العراقية وتحول دجلة من مصدر فرح وسرور إلى مصدر حزن وبكاء, وهذا منافي لحقيقة وخصوصية المكان الطبيعي المتمثل بنهر دجلة التي تغلب عليه صفة هدوء الاجواء وجمال المنظر ونقاء المحتوى, وفي سياق قريب ومتشابه في معناه للنص السابق, إذ يقول فيه الشاعر:

كما وأدري حمام القلب مذ بعدت أشجار دجلة ألقى عشه ونبا ماذا
ستنسى, لقد رف المساء على ثغر الكؤوس ولم يبصرك فانتحبا فمن لدجلة
لو فكت ضفائرها وطالبتْ أن ترى طفلاً لها حدبا ولم تجذْك فشقَتْ
ثوبَها وبكتْ (أم البساتين) إبناً دافئاً وأبا[٣٦]

قد جسد الشاعر مكاناً طبيعياً في قصيدة (هذا هو الأرض) التي أضافت الاجواء المناسبة للنص كون المكان/ دجلة , جزء من الارض وبذلك يظهر مدى التلائم والتوافق بين عنوان القصيدة ومحتواها , غير أنه أضفى على المكان (دجلة) الصفة الانسانية وعاملها معاملة الأم التي فقدت ابنها وبعد ان يئست مزقت ثيابها بعد ان فكت ضفائرها , راسماً ذلك المشهد مستنداً الى التراث والوسط الاجتماعي السائد حيث مزج بين التراث والحداثة في توظيفه للمكان الطبيعي المتمثل في نهر دجلة اضافة الى تناصه الواضح مع قصيدة (يا دجلة الخير) عن طريق قوله (أم البساتين) في معرض حديثه حول دجلة متداخلا مع بيت الجواهري المشهور :

حييت سفحك عن بعد فحييني يا دجلة الخير يا أم البساتينِ[٣٧]

اذ ان كل هذه الامور قد استثمرها الشاعر في صيغة جميلة تمخضت عن خروج نص في صورة مكانية ذا بعد طبيعي .

ومن الصيغ المكانية , يوظف الشاعر في نصوصه (الصحراء) وهو إستدعاء للمكان الطبيعي مصوراً إياها بأشكال وصور شتى ودلالات مختلفة, إذ يعمد في أحد نصوصه إلى دمج الدلالات بين صورة الوطن وصورة الصحراء , كما في قصيدة (بانتظار الوطن) إذ يقول :

له وطنٌ ضائعٌ في الفلا
جراحاتُه فرغت فامتلا
وغصَتْ غماماتُه بالدماء
فلملمَ غيماتهِ وانجلى
وبدَل عنوانه راسماً بشيب الصحاري له
منزلا[٣٨]

عمد الشاعر في هذا النص الى تصوير الصحراء على انها ذلك المكان الذي يمثل المأوى والملجأ الذي احتضن وطنه , ذلك الوطن الذي اتخذ من الصحراء منزلا له بعد ما غدر به اشقاءه وضاع عن عيون ساكنيه في فلوات الارض فصوره بصورة الانسان المنكسر الباكي من وقع ما جرى عليه , فعاش وحيدا في الصحراء غير ان الآخر المحب لوطنه الذي صوره الشاعر لم يشخص مكان وطنه على وجه التحديد بل بقي دائم السؤال عنه على آمل أن يجده في مكان أو صحراء ما , ساكباً الصفة الانسانية على المكان الطبيعي بسؤاله إياه , إذ يقول :

ويسأل كل الصحاري أما
مر من بابكم ذلك المبتلى؟[٣٩]

يستعير الشاعر صور حية من واقعه المعيشي ليلقيها على كيان الوطن ووضعه المرير واصفاً إياه بـ(المبتلى), ونلحظ استمراره على ذلك الفن الاستدعائي بروافده المتنوعة, فيتكأ على معطيات ثقافية ليعيد إنتاجها برؤية ثقافية جديدة عن أحاسيس ومشاعر وإنفعالات تكشف أبعاد التجربة الشعرية , ليجعل من المتلقي مدركاً الفضاءات المكانية ومدى سعتها وما تحمله من وعي مجالي ودلالي لدى المتلقي , وفي طور المكان الثقافي نجد الشاعر يمزج بين المكان/ دلالة الصحراء مع دلالة الموت في نصه الشعري , إذ يقول :

ومن لصحراء هذا الموت ؟ قلتُ أنا... ولم أتمَ كلامي بادرت خيلي[٤٠]

ولا بد من الإشارة الى ان (للأهوار) أهمية خاصة وانتماء حقيقي الى تشكلات المكان الطبيعي الى جانب بعدها التاريخي والحضاري , إذ تمثل أماكن ثقافية لها خصوصياتها عبر التاريخ , فهي معلم ثقافي وحضاري مهم (حيث ادرجت على لائحة التراث العالمي كأماكن سياحية عالمية) لذلك عمد الشعراء الى توظيفها في قصائدهم وإبراز معالمها الطبيعية, في أجواء تسودها الصفة الاجتماعية قصد الشاعر من وراءها التمسك بالهوية الجنوبية للمجتمع العراقي , إذ يقول :

وسال من قصب الأهوار سربُ شجىً لأنَه قصبٌ لا يُشبه القصبا يا
ابن الفراتين ما أدناك من دمنا فأنت صوتٌ متى لا مستُه وثبا وأنت
جرحٌ إذا مرَت بوردتهِ أصواتُ أهليك فزَ الجرح وانتصبا[٤١]

فكما نلاحظ ان هناك وصف دقيق للمكان الطبيعي (الاهوار) خاصة وان الشاعر قد سلط الاضواء على القصب, كونه ينتشر بكثافة إذ يمثل السمة الغالبة لتلك الاماكن و خصوصاً منطقة الاهوار, ولذلك جاء وصف الشاعر (قصب الاهوار) الى جانب النزعة التراثية والحضارية التي يحملها ذلك المكان , إذن

فالنص زاخر بالعبارات المكانية ذات الدلالة الطبيعية مثل (الاهوار– قصب– الفراتين– الورود) وهذا النسق المكاني الذي يتخلل السياق العام للنص انتج صورة مكانية جميلة مترامية الاركان والدلالة .

أما (الكهوف) فكان لها حيز في نصوص الشاعر, إذ جاءت تحمل اكثر من دلالة وترمز الى اكثر من جانب , فعلى الرغم من كونها مكان ذا صفة طبيعية , إلا انها تحمل الدلالة الدينية والتاريخية كما نجد ذلك في قصيدة (بدايات) ومنها قول الشاعر :

من كل أولْ

أولى الدموع

.....

أولى الرسوم على الكهوفْ

أولى حنينك للشجرْ

أولى هروبك من تقاسيم السماء[٤٢]

نلحظ أن الايقونة البدائية مسيطرة على النص مما حدى بالشاعر أن يرسم للكهوف صورة ضاربة في القدم , إذ ربطها بالوجود الانساني الاول , ففي النص إشارة الى نبي الله آدم (عليه السلام) وبداياته في الارض , حيث ان توظيف الكهف في هذا النص يحمل دلالة المكان الطبيعي من جانبين : الاول كونه مكان طبيعي لم يتدخل الانسان في وجوده , والثاني فيما يحمله من صفات بكونه جزء من الطبيعة من حيث شكله وتركيبه اذ يوحي الى شيء من الجمال الذاتي فيما يبعثه في نفوس الناس , مما دفع الشاعر الى قول (أولى الرسوم على الكهوف) اذ ليس كل مكان ممكن ان يستهوي عقل الانسان البدائي ليرسم عليه .

ويستمر الشاعر في استدعاء صوره المكانية المتنوعة , ومن جملة ذلك ما نجده في توظيفه لـ (الغابات), إذ يقول :

بدءا سأوقظ هذي الشمس في الليلِ فبلِلوا نومكم ثم اتبعوا ظلـي ولملموا
كـل أطفال الصباح فقد مرَ الزمان , وتاهوا كلُهم قبلي والآن لملمَ هـذا
الوقت صبيته وظلَ يبحث في الغابات عن أهلي عن دمعة تركت فـي
الريح أغنيةً قد بعثرت شعرها رملاً على الرملِ[٤٣]

ما يميز النص سياقه الطبيعي الجامع لكل عناصر البيئة الوجودية , حيث جاءت لفظة الغابات ضمن تركيبة بيئية أثرت على لغته العامة , فلو تأملنا عناصر الطبيعة الواردة في النص نحو (الليل– الشمس

– الصباح– الوقت– الريح) نجد أن جميعها تلامس المكان/الغابات, وتدور في أجواءه كل يوم , فيتأثر بها ويستقي من متغيراتها

وقد أكتسبت (البساتين) مميزات المكان الطبيعي , بفضل ما احتوته من الأشجار والمزروعات التي نثرت عليها الصفة الخضراء , إذ يقول الشاعر :

له وطنٌ ضائعٌ في الفلا
جراحاتُه فرغت فامتلا
وغصَتْ غماماتهِ بالدماء
.....
بساتينُه مثقلاتُ الخطا
وكانت خطا طفله أثقلا(٤٤)

يكشف النص مدى حب الشاعر لوطنه, حتى شغل فكره وأثر على شعره فيصور وطنه وكأنه ضائع في الصحراء , حاملاً معه جراحه وهمه وغمه لما لاقاه وألم به , فبضياع الوطن يذهب كل ما يحتويه حتى البساتين, إذ رحلت معه بخطى مثقلة متعبة, غير ان خطا أطفال الوطن أثقل وأبعد وأشقى, حيث كان توظيف الشاعر للبساتين مختلف عما تميزت به , كونها أحد تجليات الطبيعة ويرافقها الجمال والمتعة غير أن الشاعر هنا وظفها وأجواء الحزن تملأ جو القصيدة, ربما ملائمة للسياق الذي انتهجه في نصه

ويمكن عد (الحدائق) ضمن حدود المكان الطبيعي ,إذ وظفها الشاعر في قصيدة (آدم الأخير) شارحاً أوضاع آخر إنسان في هذا العالم , إذ يقول :

لم يكن يؤلمه شيءٌ
سوى ما يملكُ الآنَ
من الأرضِ
وآلافِ الحدائقْ(٤٥)

ربما يقصد الشاعر ان هذا الآدمي الأخير على هذه الأرض كان يتألم في داخله وهو يفكر في مصير أملاكه من الأرض وما سواها , أو ربما كان يتألم كونه ليس باستطاعته حمل هذه الأمانة الصعبة التي ورثها من جميع الناس, فألقيت على عاتقه وقول الشاعر بصيغة الجمع (الحدائق) جاء ملائماً لفكرة القصيدة, لان هذا الشخص هو آخر إنسان تبقى على هذه الأرض وبالتالي أصبح يملك ما كان لغيره فزادت أملاكه أضعافاً .

الهوامش والمصادر:

(١) الطبيعة في شعر ابن الساعاتي (ت٦٠٤هـ) , م.د. فارس ياسين محمد الحمداني , مجلة آداب الرافدين , كلية الآداب , جامعة الموصل ٢٠١٨م , ع ٧٥ : ٢١٠ .
(٢) يُنظر : جماليات الطبيعة في الشعر الموصلي في القرن الثاني عشر للهجرة , د. شريف بشير أحمد , مجلة أبحاث كلية التربية الأساسية , جامعة الموصل , أيلول ٢٠١٢م مج ١٢ , ع ١٤ : ١٣٧ .
(٣) الحيوان في الأدب العربي , شاكر هادي شكر , مكتبة النهضة العربية – بيروت , ط ١ , ١٩٨٥م : ١ / ٧ .
(٤) الأعمال الشعرية, عارف الساعدي, دار سطور للطباعة والنشر والتوزيع, العراق- بغداد, ط١ , ٢٠١٨م : ٥٤ .
(٥) المصدر نفسه : ١٠٢ .
(٦) المصدر نفسه : ١٢٨ .
(٧) آدم الأخير , عارف الساعدي, دار ومكتبة عدنان للطباعة والنشر والتوزيع, العراق- بغداد, ط١ , ٢٠١٩م . ٥٤ .
(٨) المصدر نفسه : ٤٧ .
(٩) المصدر نفسه : ٥٥ .
(١٠) الأعمال الشعرية : ٢٣٣ .
(١١) يُنظر : مخاطبة الطير في الشعر العربي حتى نهاية القرن الخامس الهجري , حمد بن علي بن حمد الفقيه الحسيني الهاشمي (رسالة ماجستير) جامعة أم القرى - كلية اللغة العربية – فرع الأدب والبلاغة والنقد , ٢٠١٤م : ١٢ .
(١٢) أدب الكاتب , أبي محمد عبدالله بن مسلم بن قتيبة (ت ٢٧٦هـ) , شرح وتقديم , علي فاعور , إصدار وزارة الشؤون الإسلامية والأوقاف والدعوة والإرشاد , السعودية (د.ط / د.ت) : ٥٨ – ٥٩ .
(١٣) الأعمال الشعرية : ٤١ – ٤٢ .
(١٤) الأعمال الشعرية : ٨٦ .
(١٥) المصدر نفسه : ١٦٤ .
(١٦) المصدر نفسه : ٩٦ .
(١٧) آدم الأخير : ٩١ .
(١٨) المصدر نفسه : ٥
(١٩) آدم الاخير : ٦٦-٦٧ .
(٢٠) المصدر نفسه : ٦٤ .
(٢١) الاعمال الشعرية : ٨١ .
(٢٢) المصدر نفسه : ١٢٢ .
(٢٣) الصورة الشعرية في النقد العربي الحديث , بشرى موسى صالح , المركز الثقافي العربي , الدار البيضاء – المغرب , بيروت – لبنان, ط١ , ١٩٩٤م : ٦١ .
(٢٤) الصورة الشعرية النظرية والتطبيق : ٧٣ .
(٢٥) دلالة المكان في الشعر الأموي " شعر قيس بن الملوح أنموذجاً " محمد فتحي الأعصر , مجلة الكوفة – الكوفة , العدد ٢٠١٧/١١م : ٢١٤ .
(٢٦) الأعمال الشعرية : ٥٥ .
(٢٧) يُنظر : تجديد ذكرى أبي العلاء , طه حسين , دار المعارف- مصر , ط٢ , ١٩٦٣م : ١٩
(٢٨) الاعمال الشعرية : ٦٠ .
(٢٩) مقومات السيرة الذاتية في الأدب العربي الحديث " بحث في المرجعيات " جليلة طريطر , مركز النشر الجامعي , تونس (د.ط) ٢٠٠٤م : ٥٥ .
(٣٠) الأعمال الشعرية : ٨١-٨٢ .
(٣١) المصدر نفسه : ٨٧ .
(٣٢)الشفرة التأويلية "تمثلات الرافدين في الشعر العراقي ١٩٠٠- ١٩٥٠" د. رائدة العامري , مؤسسة أبجد للترجمة والنشر والتوزيع, العراق-بابل , ط١, ٢٠٢٢م : ١٢٠ .
(٣٣) فعالية القارئ في الدراسات النقدية, حادة بونوار, جامعة عبد الرحمن ميرة- الجزائر, مج٨, ع١, ٢٠٢١م: ٢٩٢ .
(٣٤) الأعمال الشعرية : ٩١ .
(٣٥)الشفرة التأويلية "تمثلات الرافدين في الشعر العراقي ١٩٠٠- ١٩٥٠" : ١٢١ .
(٣٦)الاعمال الشعرية : ٩٧ .

(٣٧) ديوان الجواهري, محمد مهدي الجواهري, جمع وتحقيق: د. إبراهيم السامرائي وآخرون, مطبعة الأديب البغدادية, العراق- بغداد, (د.ط) ١٩٧٥م : ٥/ ٨٣ .
(٣٨) الأعمال الشعرية : ٥٣ .
(٣٩) المصدر نفسه : ٥٤ .
(٤٠) المصدر نفسه : ١٠٢ .
(٤١) المصدر نفسه : ٩٧ – ٩٨ .
(٤٢)المصدر نفسه : ١٣٦ .
(٤٣) المصدر نفسه : ١٠٢ .
(٤٤) المصدر نفسه : ٥٣ .
(٤٥) آدم الأخير : ٢٠ .